الباب الأول

الفصل الأول

مشكلة الخلافة

(١) القدماء والتاريخ

اعتاد بعض قُدامى المؤرخين أن يسلكوا فى كتابة تاريخ الصحابة مسلكا عجيبا ، فتراهم يطمسون بعض الحقائق طمسا غريبا ، ويضللون الناس تضليلا كبيرا بإغراقهم فى المدح والثناء على هؤلاء الرجال بحق وبغير حق حتى يتوهم القراء أن الصحابة أشخاص مقدسون لايجوز عليهم الخطأ : يفعلون ذلك ظانين أن كتابتهم التى يكتبونها على هذا النحو تقربهم من الله زلفى ، وتضمن لهم الجنة . . . ولاريب فى أنهم مخطئون ، ولاعجب أن كانت كتابتهم خِلوا من الروح العلمى الصحيح ، لافائدة منها ولا خير فيها ، تقرؤها فتشعر بأنك تطالع قطعة من المديح ، لا أكثر ولا أقل ؛ فتمحيص الحقائق التاريخية ، وتحليل أعمال الأشخاص ، ووضع الأمور فى نصابها ، والنظر إلى الموضوع فى نزاهة وإخلاص ، وتحرى الصدق والتجرد من الأهواء ، وتحكيم العقول بدلا من الميل مع العواطف ، كل هذا من الأمور التى لم يعرف القدماء إليها سبيلا ، اللهم إلا المعتزلة الذين كانوا مطبوعين على الجرأة والصراحة .

وفى هذه الأيام نجد كثيرين يسلكون مسلك القدماء فيما يكتبون : يرددون ما خطته أقلام أسلافهم من غير بحث ولا تحقيق . وإن أنت حاولت أن تتبع طريق العلماء الباحثين ، وتحكم عقلك فيما لم يعتادوا تحكيم عقولهم فيه ، رموك بالكفر ، واتهموك بالإلحاد ، وانهالوا عليك بالشتائم والسباب . . .

وسواء رضى هؤلاء أو غضبوا ، فإنى أوثر أن أنهج نهج العلماء المحققين الذين يضعون الحقيقة فوق كل اعتبار .

(٢) لمن الخلافة ؟

ماكاد النبي يلفظ النفس الأخير حتى تحركت أطماع [1] بعض الصحابة فى منصب الخلافة ، وأظهر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء ، وتكشفت النفوس عما كانت تنطوى عليه من أمور كانت مستورة مدة حياة النبي ، وظهرت بعد ساعات قليلة من وفاته .

لقد اجتمع الأنصار عقب وفاة الرسول إلى سيدهم سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة وبايعوه خليفة . وماكاد أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يسمعون بهذا النبأ حتى أسرعوا إلى مكان اجتماعهم ، ودار بينهم وبين الأنصار جدال شديد ونقاش عنيف : فالأنصار يقولون إنهم نصروا النبى وآووه ، وساعدوه وآزروه ، وكافحوا من أجله ومن أجل الدين كفاحا شديدا ، وعلى ذلك يجب أن يظفروا بهذا المنصب جزاء وفاقا لهم

(١) ذكر ابن قتيبة أن أبابكر قال : والله إنى لشديد الوجع ، ولما ألقى منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى . إنى وليت أمركم ولست خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم أنفه إرادة أن يكون هذا الأمر له وذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت .

على ما بذلوا من جهود . ووقف أبو بكر وعمر يردان على الأنصار الحجة بالحجة ويدفعان البرهان بالبرهان ، ويذودان عن حق المهاجرين فى الخلافة : فالمهاجرون وهم الذين احتملوا الاضطهاد والعذاب ، وصبروا وصابروا وضحوا بأنفسهم وأرواحهم فى سبيل الدين : وهم يفضلون الأنصار — كما يزعم أبو بكر — بأسبقيتهم إلى دخول الإسلام .

قال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر : هيهات [1] لا يجمع سيفان فى غمد واحد : والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا ينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم ، وأولى الأمر منهم ، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين . من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل ، أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكة .

فأنت ترى أن عمر فى كلامه هذا كان أول من أحيا العصبية الجاهلية فى نفوس المسلمين . وترى كذلك أن عمر خول نفسه الحق فى الكلام عن العرب بأجمعهم حين يخاطب الأنصار بقوله : « والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم » وأمر ثالث تلحظه فى كلام عمر وهو أنه جعل النبى ملكا له سلطان وله ميراث ، وجعل لأبى بكر الحق فى حيازة هذا السلطان ، وفى الاستيلاء على هذا الميراث .

ولما كان الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج ، وكان بين هاتين القبيلتين عداوة شديدة ، وحروب طاحنة فى العصر الجاهلى ، خشيت إحداهما بأس الأخرى إذا خلص لها الأمر : وعلى هذا وافقت

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص١٢ طبع مصر مطبعة النيل ١٩٠٤

الأوس على مبايعة أبي بكر وتبعتها الخزرج ، عدا سيدها سعد بن عبادة الذى أهان أبابكر إهانة شديدة ، بل أهان المهاجرين جميعا . وأبى أن يبايع أبا بكر واعتزل المسلمين ، ورحل إلى الشام فى أيام عمر ومات هناك .

وبعد أن تمت البيعة لأبى بكر من الأنصار دخل المسجد فرأى قوما آخرين لا تقل أطماعهم عن أطماع الأنصار . رأى بنى أمية مجتمعين حول عثمان ، وبنى زُهرة مع عبد الرحمن بن عوف ، وبنى هاشم مع على بن أبى طالب ، فقال عمر وقد عرف كل ما يجول بخاطر كل منهم : مالكم مجتمعين حلقاً شتى ، قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقد بايعته وبايعه الأنصار . فقام عثمان ومن معه فبايعوه ، وقام عبد الرحمن بن عوف ومن معه فبايعوه أيضا .

وأما على والعباس ومن معهما من بنى هاشم فانصرفوا إلى بيوتهم ومعهم الزبير بن العوام ، فذهب إليهم عمر فى عصابة ، فقال انطلقوا فبايعوا أبابكر فأبوا ، وخرج الزبير بن العوام بالسيف فقال عمر « عليكم الرجل فخذوه » ، فوثب عليه واحد من العصابة فأخذ السيف من يده وضرب به الجدار ، وأخذوه وانطلقوا به ، وأرغموه على المبايعة . وذهب بنو هاشم فبايعوا وأخذوا عليا ليبايع فقال « أنا أحق[1] بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ، ألستم زعمتم الأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة ، وسلموكم الإمارة ؟ فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص١٨ طبع مصر ١٩٠٤ مطبعة النيل .

الأنصار، فنحن أولى برسول الله حيا وميتا . فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون». فقال عمر « لست متروكا حتى تبايع » فقال له على « احلب حلبا لك شطره ، وشد له اليوم يرده عليك غدا » عنى بذلك ساعده اليوم فى الحصول على الخلافة ليوليك بعده على المسلمين . ثم قال : « والله ياعمر لا أقبل قولك ولا أبايعه » . فقال أبو بكر « إن لم تبايع فلا أكرهك » . وتكلم أبو عبيدة بن الجراح ونصح عليا بالمبايعة ، ولكن عليا قال « الله الله يامعشر المهاجرين ، لاتخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم » . ثم ما كان منه إلا أن حمل زوجته فاطمة على دابة وأخذ يطوف بها فى مجالس الأنصار تسألهم النصرة فكانوا يقولون لها : يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل .

فيما تقدم ترى أن عمر سلك طريقا غير رشيد، فاحتج على الأنصار بأنهم أسبق الناس إلى الإسلام مع أنه ليست هناك أدنى علاقة بين أسبقية المرء إلى الإسلام وبين صلاحيته للحكم . ثم إنه احتج عليهم بقرابة المهاجرين للرسول . ومع ذلك فقد كان واجب العدل يقضى بأن تكون الخلافة لعلى بن أبى طالب ما دامت القرابة اتخذت سنداً لحيازة ميراث الرسول . لقد كان العباس أقرب الناس إلى النبي وكان أحق الناس بالخلافة ، ولكنه تنازل بحقه هذا لعلى . فمن هنا صار لعلى الحق وحده فى هذا المنصب . ثم إن عمر هدد بنى هاشم فذهب إليهم فى عصابة ، وحمل الزبير وأرغمه على البيعة كما تقدم ، وكاد يقتل عليا .

أما على فإنه رفض مبايعة أبى بكر مع أنه رأى الأمة كلها قد بايعت ،

فكان واجبا عليه أن ينكر ذاته ، ويسمو بمصلحة الإسلام والمسلمين فوق الاعتبارات الشخصية . ثم كان يجب عليه أن يسلم بالأمر الواقع ويذعن لما أذعن له غيره من المسلمين .

ومما يؤخذ عليه أيضاً أنه حاول أن يثير نيران الحرب بين المسلمين ، فذهب إلى الأنصار حاملا زوجته على دابة كما أسلفنا سائلا إياهم النصر. تُرى ، ماذا كانت حالة الإسلام والمسلمين لو استجاب الأنصار لدعوة على وقاموا معه فى وجه أبى بكر ؟!

(٣) الشيخان

والظاهر أن أبا بكر وعمر قد وضعا هذه الخطة وفكرا فيها قبل وفاة الرسول . ثم نفذاها فيما بعد بدقة وإحكام فكتب لها النجاح والتوفيق . وليس مما يعقل أن يكون قول أبى بكر « نحن الأمراء وأنتم الوزراء الخ » وليد الساعة . وأنا أرى أن القوم فكروا فى هذا الأمر والرسول لا يزال على قيد الحياة . وربما كان تفكيرهم فيه بعيد غزوة أحد التى تعرض النبى فيها للموت .[1] والشيعة تزعم أن النبى عهد إلى على بالأمر من بعده . وهذا زعم باطل لأن عليا لم يستشهد به على صحة دعواه

وسواء أكان الشيخان أبو بكر وعمر وصلا إلى منصب الخلافة بحق أو بغير حق ، فإنهما من غير شك قد خدما الإسلام خدمة لا تقدر ، بقى أثرها إلى اليوم ، وسيبقى إلى ما شاء الله . فلأبى بكر الفضل فى تثبيت أقدام الدين فى شبه الجزيرة بقضائه على المرتدين ومدعى النبوة .

---

(١) ذكر ابن قتيبة وغيره من المؤرخين أن العباس لقى عليا فقال له « إن النبى يقبض فاسأله إن كان الأمر لنا بينه وإن كان لغيرنا أوصى بنا خيرا » ولكن عليا لم يسأل النبى عن ذلك .

وما كاد ينتهى من ذلك حتى وجه العرب نحو الغزو والفتح ، فترتب على ذلك أن خرج المسلمون مجاهدين فى سبيل الله ففتحوا فارس والشام . ثم مات أبو بكر : واعترافا منه بفضل عمر عليه فى الوصول إلى مقعد الحكم عهد إليه بالخلافة من بعده . والظاهر أن أبا بكر كان قد وعد عمر بهذا فبر بوعده . وفى أيام عمر تم فتح الشام والاستيلاء على مصر وغنم المسلمون غنائم جمة . ولعل من الصواب أن نقول إن عمر كاد يقف بالفتوح عند فارس وبلاد الشام . لقد تردد كثيراً فى فتح مصر . وأخيراً بعد إلحاح شديد من عمرو بن العاص وافق على إرسال جيش صغير واشترط على عمرو أنه سيرسل إليه خطاباً إن وصله وهو خارج الحدود رجع ، وإن وصله وهو داخل الحدود تقدم وطلب العون . ولما كان ابن العاص مخلصاً فى الجهاد فى سبيل الله فقد أخفى رسالة عمر التى وصلته وهو خارج حدود مصر ، ولم يفتحها إلا بعد أن أوغل فى الديار المصرية . ثم ان عمر فعل فعلة سياسية جريئة وهى عزله خالد بن الوليد من قيادة الجيوش العربية فى الشام فى أثناء اشتداد المعركة بين المسلمين والروم . لقد كان هذا العمل جديرا بأن يقضى على وحدة المسلمين ويؤدى إلى انهزامهم الشنيع أمام الأعداء . ولكن خالد بن الوليد أثبت أنه رجل كبير العقل والنفس ، فوضع مصلحة الإسلام فوق كل اعتبار ، وأخفى نبأ عزله حتى إذا ما تم النصر للمسلمين سلم القيادة إلى أبى عبيدة بن الجراح وقبل أن يعمل تحت إمرته .

ومع كل ما قدمنا فإن هذين الشيخين لا يستحقان تلك المطاعن الكثيرة التى كالها لهما شعراء الشيعة بغير حساب . لقد كانت أيام حكمهما

من أسعد الأيام التى مرت على المسلمين وكان عصرهما من خير عصور الإسلام . فإذا ما ذكرنا اسميهما وجب علينا ان ننحنى إجلالا واحتراما لهما ، فإنهما جديران بكل تقدير . ولكن شعراء الشيعة لم ينظروا إلى المصلحة العامة ، بل نظروا إلى المصلحة الخاصة ، مصلحة على ، فملئوا أشعارهم بالشتائم والسباب ، وألصقوا بهما كثيراً من المثالب والنقائص بل رموهما بالكفر والخروج على الدين . من أمثلة ذلك ما روى أن المهدى جلس يوما لتوزيع الأعطية على من يستحقها من المسلمين ، وكان فى المجلس نفر من آل الخطاب ينتظرون نصيبهم من العطاء ، وبينما القوم جلوس إذ دخل الخادم على المهدى يحمل إليه رسالة فلما فتحها وجد بداخلها قصيدة بعث بها إليه السيد الحميرى جاء فيها :

قُلْ لابن عباسٍ سَمِيّ محمدٍ ... لا تُعْطِيَنَّ بنى عَدِيٍّ درهَما

احرِمْ بنى تَيْمِ بنِ مُرَّةَ إنَّهم ... شَرُّ البريَّةِ أَوَّلاً وَمُقَدَّما

منعوا تُرَاثَ محمدٍ أَعْمَامَه ... وابنَيْهِ وابنَتَه عَدِيلةَ مَرْيَمَا

وتأَمَّرُوا من غير أن يُسْتَخْلَفُوا ... وكَفَى بما فعلوا هنالِكَ مأْثَمَا

لم يَشْكُرُوا لمحمد إنْعامَه ... أَفَيَشكُرون لغيره أَنْ أَنْعَمَا

واللهُ مَنَّ عليهمُ بمحمدٍ ... وهَدَاهُمُ وكَسا الجُنوب وأَطْعَمَا

ثم انْبَرَوْا لِوَصيِّه وَوَلِيِّهِ ... بالمنكرات فجرَّعوهُ العَلْقَمَا

قال صاحب الأغانى : وهى[1] قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح

(١) الأغانى جزء ٧ ص ٢٤٤ طبع دار الكتب المصرية .

ما فيه فلما قرأها المهدى أمر بقطع العطاء ، فقطعه وانصرف الناس ودخل السيد إليه ، فلما رآه ضحك وقال « قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل [١] ولم نعطهم شيئا » .

(٤) عثمان

كان من سوء حظ المسلمين أن انتخب عثمان بن عفان خليفة ، فلم يكن له من الصفات مايجعله أهلا لهذا المنصب الخطير . حقا ! لقد جاهد عثمان فى سبيل الله جهادا مشكورا وضحى بكثير من أمواله لإعلاء كلمة الدين ، ولكنه لم يكن صالحا للحكم . لقد سلم زمام المسلمين إلى قومه الأمويين الذين حاربوا الإسلام بكل ما استطاعوا من حول وطول ، واضطهدوا النبي وآذوه هو وأصحابه ولم يدخلوا فى الإسلام إلا مرغمين . أجل ! لقد أعطاهم عثمان [٢] مقاليد الأمور وتركهم على هواهم فتصرفوا فى أموال المسلمين كيف شاءوا دون رقيب أو حسيب ، ونهبوا ما استطاعوا لا ضمير يؤنبهم ولا دين يردعهم ولا رئيس يؤاخذهم .

ثم إن عثمان عين على الأقاليم ولاة عرفوا بسوء السيرة واشتهروا بالفسق والفجور . ومن هؤلاء الحكام الوليد بن عقبة الذى بعثه عثمان حاكما على العراق . لقد شرب وأفرط فى الشراب ، ثم ذهب إلى المسجد لأداء صلاة الصبح فصلى بالناس أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال : أزيدكم ؟ وتقيأ فى المحراب ، وقرأ فى الصلاة وهو رافع صوته :

علق القلب الربابا بعد ماشابت وشابا

---

(١) هو السيد الحميرى . (٢) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ٥٤

فقدم رجل المدينة وأخبر عثمان بما حصل من الوليد فما كان من عثمان إلا أن ضرب الرجل ، فقال الناس: عطلت الحدود وضربت الشهود .

قال صاحب الأغانى [١] « خرج رهط من أهل الكوفة إلى عثمان فى أمر الوليد فقال : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ! لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا بعائشة ، وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتا وكلاما فيه بعض الغلظة ، فقال : أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ فسمعت عائشة فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة صاحب هذه النعل فتسامع الناس فجاءوا حتى ملئوا المسجد ، فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل: ما للنساء ولهذا ، حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله (ص) فقالوا له : اتق الله واعزل أخاك [٢] عنهم فعزله » .

فيلاحظ القارىء مما تقدم أمورا منها أن عثمان بن عفان اعتبر وفد العراق فساقا ومراقا ، ثم إنه جعل بيت رسول الله أو بيت عائشة أم المؤمنين ملجأ لهؤلاء الفساق والمراق . فهذا البيت فى نظر عثمان مكان للمروق والخروج ! ! والأمر الثالث الذى يلاحظه القارىء أن عائشة صرحت بأن عثمان ترك سنة رسول الله فتكاثر الناس وتحاصبوا وتضاربوا بالنعال . فكان عثمان بتركه سنة رسول الله مستحقا للعزل . ولما طلب المسلمون منه ذلك وألحوا عليه مرارا رفض وأبى وأمعن

(١) الأغانى جزء ٥ ص ١٣٠ طبع دار الكتب .

(٢) كان الوليد بن عقبة أخا عثمان من الرضاع .

فى الرفض والإباء ، فلم يجد القوم بدا من قتله . قتل عثمان لما قدمنا من أسباب ، ولأسباب أخرى لا يتسع المجال لشرحها .

(٥) على

بعد مقتل عثمان انقسم المسلمون إلى ثلاثة أحزاب ، هى :

عثمانيون وهم الذين طالبوا بدم عثمان وكانوا فرقتين : الفرقة الأولى بزعامة معاوية ، والثانية بزعامة طلحة والزبير .

أما الحزب الثانى فهم العلويون أنصار على بن أبى طالب .

وبعد قليل ظهر حزب ثالث وهو حزب الخوارج .

ثم أخذت هذه الأحزاب ينقسم بعضها على بعض حتى أربى عدد فرقها على السبعين ، وإنك لتجد ذلك واضحاً جلياً فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى .

(٦) خطر الموقف

اجتمع فريق من المسلمين وبايعوا عليا . وكان أول من بايعه الأشتر النخعى أحد قواد جيشه . ولكن عليا وجد أن عددا كبيرا ممن يعتد برأيهم من الصحابة غير راضين عنه . فدعا طلحة والزبير لمبايعته فتلكأ طلحة فهدده الأشتر النخعى بالقتل فأذعن وبايع . وجىء بسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ليبايعا فامتنعا . وتخلف عن البيعة من الأنصار كثيرون منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومسلمة ابن مخلد ، وأبو سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد

ابن ثابت ، ورافع بن خديج ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عمرة . وكان هؤلاء يميلون إلى عثمان لما كان يسبغه عليهم من أموال .

ثم إن عائشة زوج النبي انضمت إلى جانب أعداء على ، وأخذت تحرض الناس عليه ، وتشجعهم على محاربته .

وجد على نفسه أمام أعداء أقوياء من الشرق ومن الغرب ، فقد خرج طلحة والزبير إلى العراق ، وكان معهما جيش كبير وخرجت معهما عائشة أم المؤمنين . وهنا يلاحظ القارىء موقفين متناقضين لعائشة ، الموقف الأول كان ضد عثمان الذى ترك سنة رسول الله كما تقدم آنفا .

والموقف الثانى خروجها مع طلحة والزبير إلى العراق ، وانضمامها إلى صفوف الذين يطالبون بدم عثمان !!

لاشك فى أن عائشة أصابت فى موقفها الأول ، ولكنها فى رأيى أخطأت خطأ عظيما فى الثانى ، فما كان لنساء النبى أن يخرجن من بيوتهن على هذه الصورة . ترى ما الذى دفعها إلى الذهاب إلى العراق مع طلحة والزبير ؟؟ وما الذى حملها على تحريض الناس على محاربة ابن عم الرسول ؟ أصحيح أنها كانت تريد الثأر لعثمان ؟

* * *

استطاع على أن يوقع بطلحة والزبير هزيمة شنيعة فى وقعة الجمل التى قتل فيها طلحة والزبير ، وخسر فيها الفريقان خسارة كبيرة . ثم عامل على عائشة معاملة حسنة وردها إلى المدينة معززة مكرمة .

ثم فرغ بعد ذلك لمعاوية ، وتقابلت جيوشهما فى صِفّين . وهناك دارت رحى الحرب بين الفريقين واستمرت أكثر من ثلاثة أشهر خسر فيها الفريقان خسارة فادحة . ولما رأى معاوية أن الهزيمة توشك أن تلحق به ، استشار عمرو بن العاص فى الموقف فأشار عليه برفع المصاحف على أسنة الحراب ، وطلب تحكيم كتاب الله . فحاول على أن يحمل جنده على مواصلة القتال حتى النهاية ، ولكنهم رفضوا فاضطر إلى قبول التحكيم . ولما انتهى أمر الحكمين بتثبيت معاوية وخلع على ، أراد على معاودة القتال ، ولكن فريقا من أتباعه رأوا أنه كفر بقبول ، التحكيم وطلبوا منه أن يعترف بذلك ويتوب ولكنه رفض طلبهم ، فخرجوا عليه وسموا بالخوارج . وقد قاتلهم وشتت شملهم فى وقعة النهروان .

ثم رجع من حرب الخوارج وأخذ يحث أنصاره على النهوض معه لقتال معاوية ، ولكنهم كانوا يعتذرون بمختلف المعاذير ليبرروا عدم قدرتهم على القيام معه . وبقى يخطب فيهم على غير جدوى حتى قتل .

* * *

لقد أخفق على إخفاقا مبينا لأنه كان فى العراق حيث القبائل البدوية التى لا تعرف الطاعة ولا النظام بخلاف معاوية الذى كان بالشام يسيطر على جنود يدينون له بالطاعة والولاء .

ثم إن عليا كانت تنقصه صفات لابد من توافرها فى كل سياسى ناجح من مكر ودهاء وخداع وشراء الأنصار بالمنح والصلات إلى غير ذلك مما لم يتوافر فيه

* * *

ولم يكن حظ ابنه الحسن بأفضل من حظ أبيه ، فقد مات مسموماً ، وحدث أن عهد معاوية بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، فغضب كثير من المسلمين وثاروا عليه . وخرج الحسين إلى العراق فقابلته جيوش يزيد عند كربلاء ولم يخفَّ أهل العراق لنجدته ، فحوصر هو وأصحابه ثم هجم عليهم أعداؤهم فاستشهدوا جميعاً ولم ينج إلا طفل صغير هو على بن الحسين الملقب زين العابدين والنساء اللاتى كن مع الحسين .

(٧) خاتمة

هذا البحث الذى سقناه عن الخلافة لابد لنا منه . فالتشيع مذهب سياسى يقوم على أركان أهمها منصب الخلافة ولمن يكون .

ولقد رأينا ان القوم بشر مثلنا ، لهم حسنات ولهم سيئات . وقد كان يخطىء بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضا . وإذا كان التعرض لهؤلاء الناس بالنقد كفرا فما الحكم على عائشة وقد قالت : « اقتلوا نعثلا [1] لعن الله نعثلا » وخرجت إلى العراق وخطبت كثيرا وحرضت الناس على قتل على وأبنائه ، وساقت إليهم الشتائم والسباب ؟ وما الحكم على على وقد رأينا موقفه من أبى بكر وعمر؟

الظاهر ان النقد للصحابة كفر إذا كان ذلك منا ، أما إذا تعرض بعض الصحابة لبعض كما مر بنا بالسب واللعن فهذا ليس بكفر . ذلك رأى كثيرين . أما أنا فلا أذهب إلى ما يذهبون ولا أرى ما يرون .

* * *

(١) يريد عثمان بن عفان .

لقد تنازع القوم على منصب الخلافة تنازعا قل أن تجد له مثيلا فى الأمم الأخرى ، وارتكبوا فى سبيل ذلك ما نتعفف نحن عن ارتكابه الآن . فترتب على ذلك أن أزهقت أرواح ودمرت مدن ، وهدمت قرى وأحرقت دور ، وترملت نساء ، وتيتمت أطفال ، وهلك من المسلمين خلق كثير . ومع ذلك نجد الكتاب والمؤرخين إذا تناولوا هذا العصر أسبغوا على هؤلاء القوم ثوبا من الإجلال والتقديس وجمعوا حول سيرهم الكثير من الأساطير والخرافات ، ووضعوا لهم المناقب واختلقوا الأحاديث ، حتى إن الناس لم يجرءوا على تناول الأحداث الجسام التى وقعت فى هذا العصر بروح النقد النزيه والتمحيص العلمى ، وذلك لما أصابهم من الخوف والوجل إذا هم تعرضوا لأمثال هؤلاء الرجال . فقد رسخ فى الأذهان أن التعرض لهم كفر صريح ، وخروج على الدين الحنيف .

الفصل الثانى

فرق الشـــيعة

اختلف الشيعيون فيما بينهم بعـد وفاة على بن أبى طالب . وكان أساس اختلافهم تعيين الأئمة . فمنهم من قال إن عليـا نص على إمامة ابنه محمد بن الحنفية ، وهؤلاء هم الكيسانية . ومؤسس هـذه الفرقة هو المختـار بن أبى عبيد الثقفى الذى استطاع أن يثأر للحسين وينكل بمن حاربوه أو اشتركوا فى قتله . ثم بسط سلطانه على بلاد العراق والجزيرة وفارس وأرمينية ودعا الناس إلى مبايعة محمد بن على الملقب ابن الحنفية ، وأمه تسمى خولة من بنى حنيفة ، واستدل المختار على إمامة ابن الحنفية بأن علياً دفع إليه اللواء يوم الجمل . ويقال إنه أخذ مذهبه هذا من كيسان مولى على ، وقيل إن كيسان هذا لقب المختار . وكان محمد بن الحنفية فى ذلك الوقت مقيماً فى مكة فقبض عليه ابن الزبير وحبسه مع نفر من شيعته فى سجن عارم . ولمـا بلغه أن جيشا من أنصار ابن الحنفية يعـد العـدة للهجوم على السـجن وتخليص من فيه ، أمر بوضع الخشب وإشـعال النيران فى السجن . وفى تلك اللحظة التى اشتعلت فيهـا النيران وصل نفر من أنصار ابن الحنفية واستطاعوا أن ينقذوه . وقد مات محمد بن الحنفية سنة ٨١ هـ وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان وكان والى المدينة ودفن بالبقيع . وبموته انقسم الكيسانية إلى فرقتين : الفرقة

الأولى أصحاب أبى كرب الضرير وقد عرفت بالكَرَبية . وهذه الفرقة تزعم أن محمد بن الحنفية حى لم يمت وأنه مقيم بجبل رضوى وعن يمينه أسد وعن يساره نمر وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل يأخذ منهما رزقه . وأنه سيخرج من هذا الجبل ويعود إلى الدنيا فيملؤها عدلا كما ملئت جورا ، وأنه هو المهدى المنتظر . وفكرة الرجعة هذه ظهرت بين المسلمين لأول مرة عند وفاة الرسول ، وكان أول من تكلم بها عمر بن الخطاب إذ قال إن الرسول لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران وإنه سيرجع كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات . وكان ينتمى إلى هذه الفرقة من الشيعة الشاعران الكبيران كثير والسيد الحميرى : فقد كان كل منهما يدين بإمامَة محمد بن الحنفية ويؤمن بالرجعة : وقد قالا فى ذلك شعرا كثيرا تراه فى موضعه من هذا الكتاب .

أما الفرقة الثانية فقالت بوفاة ابن الحنفية ونقلت الإمامة بعده إلى ابنه أبى هاشم . وقد انشعبت هذه الفرقة بسبب الاختلاف فى اختيار الإمام إلى شعب كثيرة .

* * *

وأما من لم يقل بالنص على محمد بن الحنفية فقد جعل الإمامة فى الحسن والحسين . واختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا . فمنهم من أجراها فى أولاد الحسن فقال بعده بإمامة ابنه الحسن ثم ابنه عبد الله ثم ابنه محمد ثم أخيه إبراهيم . ومحمد وإبراهيم خرجا على المنصور ، ودارت بين محمد والمنصور مكاتبات بشأن أحقية كل منهما فى الخلافة ، فكتب المنصور

إلى محمد بن عبد الله بعد خروجه يعرض عليه الأمان فرد عليه محمد بخطاب طويل أتينا به فى غير هذا الموضع من الكتاب فلما قرأه المنصور، استدعى الكتّاب ليردوا على محمد بن عبد الله ثم بدا له أن يرد بنفسه فأملى رسالة طويلة أثبتناها عند الكلام على أثر التشيع فى النثر. وقد انهزم محمد وأخوه إبراهيم وقتلا شر قتلة.

ومن الشيعة من أجرى الوصية فى أولاد الحسين وقال بعده بإمامة ابنه على زين العابدين نصا عليه، ثم اختلفوا بعده فمنهم من قال بإمامة ابنه زيد وهؤلاء هم الزيدية وهم موجودون حتى أيامنا هذه فى بلاد اليمن. ومنهم من قال بإمامة محمد بن على الباقر نصا عليه، ثم بإمامة جعفر بن محمد وصية إليه وهؤلاء هم الإمامية. ثم اختلفوا بعده فى أولاده من المنصوص عليه. وهكذا ظل الشيعة ينقسمون إلى فرق كثيرة. ومن أشهر الفرق الباقية إلى اليوم الإمامية الاثنا عشرية. وإليها كان ينتمى الشاعران الكبيران الشريف الرضى وتلميذه مهيار الديلمى. ومن الفرق العظيمة فرقة الإسماعيلية وهى مازالت إلى عصرنا هذا منتشرة فى بلاد الهند وزعيم هذه الفرقة أغاخان الذى يقضى معظم وقته فى أوربا

* * *

وللشيعة معتقدات غريبة فى الأئمة فهم يضعونهم فى منزلة الآلهة، ويسندون إليهم العصمة، ويغلون فى ذلك غلوا كبيرا. أُنظر إلى ابن هانىء الأندلسى حيث يقول فى مدح المعز لدين الله الفاطمى.

أتبعته فكرتى حتى إذا بلغت غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما رأيت موضع تكييف وتحديد

قال ابن أبى الحديد[1] « وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ولا يليق بالمخلوقين » وهم يرون أن طاعة الإمام من طاعة الله فهى ركن من أركان الدين وأساس من أسس الإيمان ، لافرق بينها وبين أية فريضة من الفرائض . كما يرون أن الإمام هو الذى يشفع لأمته فحبه نجاة ، وليس للأنسان ملجأ سواه .هو الذى يحط عنهم ذنوبهم وخطاياهم ، ويخلصهم من الإصر والأوزار . قال ابن هانئ :

فَرْضَانِ من صَوْمٍ وشُكْرِ خِلافةٍ ... هذا بهذا عندنا مَقْرُونُ
فارْزُقْ عبادَك مِنْك فضْلَ شفاعةٍ ... واقرُبْ بهم زُلفى فأنتَ مَكينُ
لك حمدُنا لا أنه لك مفْخَرٌ ... مَاقَدْرُكَ المنثورُ والموزُونُ
قد قالَ فِيك اللهُ ما أنا قَائِلٌ ... فكأنَّ كلَّ قصيـــدةٍ تَضْمِينُ

وقال من قصيدة أخرى :

هَذا الذى تُرْجَى النَّجَاةُ بِحُبِّهِ ... وبه يُحط الإصْرُ والأوْزَارُ
هذا الذى تُجْدِى شَفَاعَتُه غَدا ... حقًّا وَتَحْمُد أنْ تَرَاهُ النـــارُ
مِنْ آلِ أحمدَ كلُّ فَخْرٍ لم يكُنْ ... يُنْمَى إليهِمْ ليس فيه فَخَارُ

ومنهـا :

أبناءَ فاطِمَ هل لنا فى حَشرنا ... لجأٌ سواكم عاصِمٌ ومُجَار
أنْتُمْ أحباءُ الإلهِ وآله ... خُلفاؤه فى أرضـــهِ الأبرارُ
أهلُ النُّبوَّةِ والرسالةِ والهُدى ... فى البَيِّنَاتِ وَسَادَةٌ أطهارُ

(١) شرح ابن أبى الحديد جزء ١ ص ٢٠ طبعة الحلبى .

والوحى والتأويل والتحريم والـــتحليل لاخُلفٌ ولا إنكارُ
إن قِيلَ من خيرُ البريةِ لم يكن إلا كُمُ خلقٌ إليـــه يُشارُ
لو تَلْمَسُون الصخْرَ لانْبَجَسَتْ بهِ وتفَجَّرتْ وَتَدَفَّقَتْ أنهارُ
أو كان منكم للرُّفَاتِ مُخاطِبٌ لَبَوا وَظَنُّوا أَنَّهُ إنْشَارُ

ويرى الشيعة أن الإمام من نور الله .

قال ابن هانئ :

وما سارَ فى الأرضِ العريضة ذِكرُه ولكنه فى مسلك الشمس سالك
وما كنه هذا النورِ نورِ جبينه ولكنّ نورَ اللهِ فيه مُشَارِكُ

ويعتقدون أن حب على وآله كافٍ لمحو أكبر الذنوب : فكان منهم من يشرب الخمر فإذا لامه أحد على ذلك أجاب بأن حب علىّ كفيل بأن يضع أعظم وزر عن عاتق مرتكبه : وفى ذلك يقول أحد شعرائهم .

حُبُّ علىٍّ فى الورى جُنَّةٌ فامح بها يارَبِّ أوزارى
لو أن ذِمِّيًّا نوى حبـــه حُصِّنَ فى النَّارِ من النَّار

وهم يقلون إن لكل نبى وصيًّا وإن محمداً خاتم الأنبياء وعليا خاتم الأوصياء .

* * *

وقد سرى كثير من عقائد الشيعة إلى سائر الفرق الإسلامية ، فأصبح المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يؤمنون بالمهدى المنتظر . وأخذ الصوفيون هذه الخرافة ووضعوها فى قالب جديد ، فسموا المهدى

قطبا وقالوا عنه «إنه[1] يدبر الأمر فى كل عصر، وهو عماد السماء ولولاه لوقعت على الأرض» . ولهذا القطب مساعدون يسمون بالنقباء لهم فى زعم المتصوفة قدرة فائقة على استخراج ما تكنه النفوس وما تخفيه الأرحام . قد كشف عنهم الحجاب، فأصبحوا يعرفون من إبليس مالا يعرفه عن نفسه ، ويقول رجال الطرق[2] الصوفية إن الأشياخ سلم الطريق، لأن الطريق سماء لا يتوصل إليها إلا بالسلم ، والأشياخ واسطة بين المرء وربه.

وفى مصر نرى كثيرين يعتقدون بوجود شخص يسمى الخضر ، ويسندون إليه من الخوارق والمعجزات ما لم يسند الأنبياء من قبل ، ويقولون إنه لن يموت إلا عند قيام الساعة . والعامة معذورون عندنا لأن رجال الدين لا يكافحون مثل هذه الخرافات .

ولما كانت الإمامة ركنا من أركان الإيمان عند الشيعة، وكانوا يعتقدون بإمامة علىّ بالنص ، ترتب على هذا أن يكون حب علىّ أساسا من أسس الإيمان . وقد ساقهم هذا إلى تكفير كل من ناوأ عليا أو نازعه فى هذا الحق . قال بذلك معظم فرق الشيعة عدا قليل منهم ، فإنهم لم يحكموا على من خالف عليا بالكفر والخروج عن الدين . فأما الأولون وهم الغلاة فقد كفروا أبا بكر وعمر وعائشة وغيرهم ، وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا لعنهم قربة إلى الله . ومن هنا نستطيع أن نفهم المطاعن الكثيرة التى زخر بها الأدب الشيعى فى حق الخلفاء الأولين ،

(١) الفتوحات المكية لابن العربى .
(٢) كتاب المنهج الحنيف لأحد الصوفيين — مخطوط .

فقد كان السيد الحميرى وابن الحجاج ومهيار الديلمى يكثرون من سب هؤلاء القادة وهم يرون فى ذلك ما يقربهم من الله وما يضمن لهم الجنة التى أعدت للمتقين .

وقد اعتاد أعداء الشيعة أن يطلقوا على كل من عرف بتشيعه كلمة « رافضى » والحق أن الرافضة فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على بن الحسين ، ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين (أبى بكر وعمر) نقاتل معك ؛ فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ، فلا أبرأ منهما : فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه فسموا الرافضة [1] لذلك .

ومن هذا يتضح أن الرافضى هو الذى يرفض أبا بكر وعمر ، ولا يرى لأحد حقا فى الخلافة سوى علىّ . إلا أن كلمة رافضى كانت تطلق تشفيا وانتقاما من كل من أبدى حبا لآل على . قال الإمام الشافعى :

إِن كانَ رفضا حبُّ آلِ محمدٍ فليَشْهدِ الثَّقلانِ أنّىَ رافِضِى

وقال :

برئْتُ إلى المهيمنِ من أُناسٍ يرَوْنَ الرفضَ حبّ الفاطميَّهْ
على آلِ الرسولِ صلاةُ ربّى ولعْنَتُه لتلكَ الجاهِليَّهْ

(١) انظر القاموس وشرحه فى مادة (رفض) .